التربية المُقدَّسة

كيف تتشكل تربية الأبناء علاقتنا مع الله؟

جاري توماس

مطبوعات إيجلز

Eagles Publication

Originally published in USA under the title :**Sacred Parenting**
Copyright ©2004 by Gary Thomas
Translation copyright © July 2010, **By Gary L. Thomas**
Translated by Eagles Publications
Published by permission from Zondervan, Grand Rapids, Michigan, USA

التربية المقدسة

© الناشر: مطبوعات إيجلز

ص . ب ١١٠١ هليوبوليس بحري
١١٣٧١ القاهرة – مصر

طبعة أولى ٢٠١٧

رقم الإيداع: ٢٠١٧/ ٤٠١٧

الترقيم الدولي: 978-977-387-159-3

الترجمة: عادل زكري
التحرير والمراجعة: ريمون شهدي
المحرر المسؤول: سامي يعقوب
الإعداد الفني: إيجلز جروب
www.FocusOnTheFamily.me

طبع في مصر: مطابع آلوكس– المنطقة الحرة

جميع حقوق الطبع في اللغة العربية محفوظة للناشر وحده، ولا يجوز استخدام أو اقتباس أو طبع أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال بدون إذن مسبق من الناشر، وللناشر وحده حق إعادة الطبع.

Eagles Publication

إهداء إلى

"برادي بوبينك" وزوجته "شيرلي"،

اللذين بقدوتهما وتعليمهما تركا إرثًا روحيًا لا مثيل له.

Eagles Publication

Eagles Publication

شكر وتقدير

أود أن أشكر أبنائي «آليسون»، و«جراهام»، و«كيلسي» الذين سمحوا لي بسعة صدرهم بأن أقتبس من حياتهم على صفحات هذا الكتاب. لقد قرأوا كل القصص، وأبدوا موافقتهم على أي شيء يتعلق بهم في هذا الكتاب.

كما أود أن أشكر والديّ: أبي «إي. چيه. توماس»، وأمي «چينيفا توماس»، اللذين أدَّيا دورهما بأمانة كوالدين مُقدَّسين، وقدَّما لي نموذجًا لجوهر هذه التربية المقدَّسة.

هناك عدد من القراء أرسلوا لي تعليقاتهم المفيدة على المسودة الأولى من الكتاب.. إن المرجع الذي تحملونه بين أيديكم الآن استفاد جدًا من تعليقاتهم ونصائحهم وآرائهم الثاقبة. من بين هؤلاء: «چيم شموتزر» وزوجته «كوني»، «چيل تاكمورا»، «شيرلي بوبينك»، «نيكول ويتاكر»، «آني كارلسون»، و«لاري جادبو»، و«چيري توماس»، و«ماري كاي سميث»، والدكتورة «ميلودي رود».

كما أود أن أقدِّم شكرًا خاصًا للدكتور «ستيف ويلك» وزوجته الدكتورة «ريبيكا». لا يمكنني أن أبالغ في أهمية دعمهما وتشجيعهما لي، وكذلك الأفكار الثاقبة التي قدماها عن محتوى هذا الكتاب. نشعر ليزا وأنا بالانبهار أمام الأشخاص الذين باركنا بهم الله كأصدقاء وكشركاء في خدمة ملكوته.

شكري ممتدٌ أيضًا إلى دكتورة «كاثي كاربينتر» وزوجها «چوردن» لمراجعتهما لهذا الكتاب. أنا مدين لـ «كاثي» خصيصًا لسماحها لي بالاقتباس من كتاب لها لم يُنشر بعد عن تربية الأبناء أصحاب

Angelus Publication

الحالات الصعبة. أرجو أن يدرك الناشر قيمة إسهاماتها، ويُرشح كتابها للنشر.

كما أود أن أشكر دكتور «كيفن ليمان» الذي أعتز بصداقته، وبإرشاده لي بصورة غير رسميّة في الكتابة والوعظ، وكذلك «تشاب ماكجريجور» وكيل أعمالي لمساندته لي. الشكر واجبٌ أيضًا لمساعِدتي «لورا تومسون»، التي بمواهبها المتعددة سمحت لي بأن أستثمر موهبتي، وكذلك زوجها «ستيف» لنصائحه العظيمة وصداقته ودعمه.

ولأنني أردت ألا أغفل منظور الأم، فقد اعتمدت على بعض الكاتبات اللامعات والفطنات اللاتي أَضْفَت أفكارهن لمسةً ما كنتُ أستطيع رسمها بصفتي رجلاً. أود بشكل خاص أن أشكر «ريتشل كاسك»، و«إيريس كراسناو»، والرابي «نانسي فاكس كريمر».

وكالعادة قدَّم فريق دار نشر «زوندرڤان» عملاً مذهلاً.. فقد قدَّم كلٌ من «چون سلوان» و«ديرك بيورزما» كعادتهما عملاً فوق الرائع بأن أخذا مُسودة أولية للكتاب غير مصقولة، وجعلاها أفضل بكثير. كذلك أشكركما يا «چون توبليف» و«جريج ستيلسترا» لتحملكما الإيميلات الكثيرة، وحرصكما على تعريف الناس بهذا الكتاب! كما أوجِّه شكرًا خاصًا لـ «سكوت بولیندر» لتشجيعه الشخصي لي.

أخيرًا وليس آخرًا، أود أن أشكر زوجتي «ليزا»، التي يرتقي صبرها إلى صبر القديسين. كانت تتجاوب برفق عندما أقاطعها في عملها في تدبير منزلنا لأتأكد أن فقرة ما جيّدة أو قصة ما مناسبة. لقد ساهمت ليزا بتأثيرها الكبير في هذا الكتاب. لا أستطيع أن أتخيَّل كيف كنت سأكتب هذا الكتاب بدون أن تكون هي على مرمى السمع من مكتبي.

Eagles Publication

المحتويات

شكر وتقدير ٥

الفصل الأول: الله أبي ١١

الفصل الثاني: أصعب ألم على الإطلاق ٢٧
كيف تعلِّمنا التربية أن نقدِّر الشخصية والخدمة أكثر من الراحة

الفصل الثالث: الذنْب المُغلف بالذهب ٤٧
كيف تُعلمنا التربية أن نتعامل مع الشعور بالذنب

الفصل الرابع: ضبط الموجة على السماء ٧١
كيف تعلِّمنا تربية الأبناء أن نصغي إلى الله

الفصل الخامس: الفرح! ٩٣
كيف تساعدنا تربية الأبناء على التمتع بالفرح الإلهي

الفصل السادس: الانكشاف البغيض ١١٩
كيف تواجه التربية جُبننا وتُكسبنا الشجاعة

الفصل السابع: الحب الملتهب ١٣٧
كيف تعلِّمنا التربية أن نتعامل مع الغضب

الفصل الثامن: المجد المستتر وراء التعب ١٦١
كيف تعلِّمنا تربية الأبناء أن ننظر فيما وراء بريق المظهر

Eagles Publication

الفصل التاسع: الجانب الشائك من التربية: عطية الأبناء المزعجين ١٨٣
كيف تعلِّمنا التربية الصبر، وطول الأناة، والمثابرة

الفصل العاشر: إصحاح ممل (قد يغيِّر حياتك إلى الأبد) ٢٠٥
كيف تعلِّمنا التربية الأشياء الأهم في الحياة

الفصل الحادي عشر: نحن ماكينات طباعة ٢٢١
كيف تشجعنا تربية الأبناء على تطوير شخصياتنا

الفصل الثاني عشر: التضحية ٢٣٧
كيف تُعلِّمنا التربية أن نضحي

الفصل الثالث عشر: الفراق ٢٦٥
كيف تعلِّمنا التربية أن نعالج الرغبة في
السيطرة والخوف بالثقة والأمل

خاتمة: استلم مكافأتك! ٢٩٣

الحواشي ٢٩٩

Eagles Publication

Eagles Publication

"لو قُصد لتربية الصغار أن تكون سهلة، ما كانت لتبدأ أبدًا بما يُسمى المخاض!"

– غير معروف

"في العائلة فقط نُكسر، وفي العائلة فقط نُجبر."

– كارل ويتيكر

«أيها الأحباء لنطهر ذواتنا من كل دنس الجسد والروح، مكملين القداسة في خوف الله.»

– كورنثوس الثانية ٧: ١

Eagles Publication

الفصل الأول

الله أبي

في يوم من الأيام عندما كانت ابنتنا «كيلسي» في الثانية من عمرها، بدأت تشير إلى الكرسي الخاص بكل فرد من العائلة حول مائدة الطعام. كنتُ مسافرًا وقتها، وبدأت تقول: "أليسون، جراهام، كيلسي..." ثم أشارت إلى الكرسي الفارغ الخاص بي وقالت: "الله."

فأجابت زوجتي ليزا: "ليس الله يا كيلسي، هذا كرسي بابا."

فردت كيلسي بابتسامة: "يسوع."

بعد ثلاثة أيام كُنّا جميعًا في غرفة بأحد الفنادق، وبدأت كيلسي مرة ثانية. ثم بدأت تشير إلى كل واحد، وتنطق اسمه. وعندما جاء دوري قالت: "يسوع."

قلتُ لها: "أنا لستُ يسوع يا كيلسي، أنا أبوكِ."

فأجابت كيلسي: "أنت الله أبي."

ذُهلتُ، وحاولت مجتهدًا أن أوضح لها الأمر، لكن أنتم كآباء وأمهات تعرفون حال الطفل ذي العامين. عندما انتهيتُ من تكوين فكرتي، كانت

Eagles Publication

كيلسي قد وجدت شيئًا أكثر إثارة جدًا من الأسئلة اللاهوتية- إصبع قدمها الأصغر وكيف تجعله يهتز في كل الاتجاهات.

بالنسبة لي، هذه إحدى أعظم المفارقات في التربية. أفكّر في كيف بدوت كبيرًا بالنسبة لأطفالي بينما كنت فقط في العشرينات من عمري، وكنت أعرف القليل. الآن حصلت على بعض الخبرة في الأربعينات من عمري، وكم هو مثير للضحك وأنا أبدو أصغر جدًا بالنسبة لأبنائي! يعرف جراهام ابني أن يغلبني في اختبار الرياضيات (بالرغم أنه حتى الآن لم يهزمني في الجولف)، وكذلك لا توجد أية احتمالية بأن تخلط بناتي بيني وبين الله.

لكن هذه المواقف المبكرة من الهوية المختلطة فتحت عيني بصفتي أبًا شابًا. كلما زاد الوقت الذي كنتُ أقضيه مع أطفالي حتى وصلوا لسن المشي، ثم إلى ما قبل المراهقة، ثم إلى المراهقة، كان يزداد انفتاحهم على حضور الله في حياتهم.. وكلما قلَّ الوقت الذي كنت أقضيه معهم، كانت تقل مرات صلاتهم. هذه الملاحظة جعلتني يقظًا ومتواضعًا أيضًا.. فبطريقة ما ساعدتُ في تشكيل شغفهم وجوعهم لله.

اكتشفتُ سريعًا أن شغفي وجوعي لله بدا مرتبطًا بشكل مباشر بواجباتي كأب. كنتُ ولازلت أبًا لما يقرب من ٢٠ عامًا، لكني أرى أنه من المنصف أن أقول إنني نضجت في الستة عشر عامًا الماضية -روحيًا، وعاطفيًا، وعلاقاتيًا- أكثر من كل سنوات عمري مجتمعة.

لماذا توفر التربية مِثل هذا المسار الفعال للنضوج الشخصي والحكمة؟ تتطلب عملية التربية مهارات لا يمتلكها أحد سوى الله، ونحن حتمًا لسنا الله. وحتى إذا دعانا أطفالنا "الله أبي"، فإن التربية تُذكرنا باستمرار بإنسانيتنا المطلقة. نحن لا نحب بشكل كامل، كما يحب الله؛ كما أن قدراتنا على الاستيعاب والفهم وبناء الحميمية تعاني من قصور غير موجود عند الله.

بالرغم من أنني أعتبر تربية الأبناء أحد أعمق الأشياء من حيث المعنى والمجازاة في كل ما أنجزته في حياتي؛ لكنها جعلتني أتضع، وأُحبط، وأربكتني تمامًا في بعض الأحيان. ليس بمقدوري أن أؤلف كتابًا عن تربية الصغار في سن المشي، أو المراهقين، لأنني من نواحي كثيرة لا أعرف تمامًا كيف أفعل هذا! إذا ظننت أن هذا الكتاب سيقدِّم لك خمس خطوات لتساعد طفلك على النجاح في المدرسة، أو عشر خطوات لتعد طفلك لمرحلة البلوغ، فحتمًا ستصاب بخيبة الأمل. لكن هذا الكتاب يقترب من منطقة مختلفة تمامًا.. وهي كيف يستخدم الله هؤلاء الأبناء ليشكّلنا نحن من الناحية الروحيَّة.

عرفت أن القواعد قد تغيرت بعد أسابيع فقط من ولادة ابنتي الكبرى. كنا مسافرين بالسيارة إلى الجنوب نحو ولاية أوريجون عندما توقفنا عند أحد المطاعم قبل أن نستكمل رحلتنا. في مرحلة ما في حياتي كانت الوجبة المفضلة لي في الدنيا كلها هي الآيس كريم من منتجات "ديري كوين" (DQ). أدركت تمامًا أن مخترع هذه الحلوى الرائعة لديه إلهام من الروح القدس لابتكار شيء مثل مذاق "إم آند إم" من هذا الآيس كريم.

طلبنا البرجر والبطاطس المحمرة، وحصلت على الآيس كريم المفضّل لي؛ ثم خرجنا بالطعام إلى الخارج في يوم مشمس.. وفي تلك اللحظة تحديدًا انفجر حفاض ابنتنا، وهو ما كان يحدث مرة كل ثلاثة أيام. كانت ابنتنا، أول مولود لنا، تحب أن "تخزّن"؛ وكانت تفضّل أن تنتظر حتى نكون في طريقنا إلى الكنيسة، أو بمجرد جلوسنا لنتناول العشاء، أو بعد أن تستحم مباشرة، أو في لحظات راحة أخرى، قبل أن تتخلص من ما يقرب من اثنتين وسبعين ساعة من مخلفات عملية الهضم.

أتذكّر مشاعرنا وقد غُلبنا على أمرنا. البطاطس المحمرة طعمها غير لذيذ، والآيس كريم بعد ذوبانه يفقد الكثير من مذاقه– وكنت أعرف أنه ينتظرني

من ١٠– ١٥ دقيقة من العمل.. لأن هذه الرضيعة فعلت كل شيء دفعة واحدة، فتحتاج ليس فقط إلى تغيير حفاضها، بل إلى الاستحمام بشكل كامل، وتغيير ملابسها بالكامل. ونحن كنا على الطريق مسافرين!

قالت ليزا: "لا تقف هكذا. ساعدني!"

قلتُ: "ولكن ..." بينما كنت أنظر إلى البطاطس المحمرة التي ذبلت بالفعل بعد تركها لما يقرب من عشر دقائق؛ وأحملق يائسًا إلى الآيس كريم، ويسيل لعابي أمامه، مع أنه بدا بالفعل كما لو كان سيغلي تحت أشعة الشمس. وضعت علبة الطعام فوق السيارة، وذهبت لعمل المطلوب.

لقد تغيّرت الحياة فعلاً! قد يبدو الأمر تضحية بسيطة بالنسبة لك.. لكن حتى الآن، بينما أسترجع الزمن بعد هذه الحادثة بما يقرب من ١٥ عامًا، يبدو الأمر كحلم مزعج– لكنه كان علامة على نقطة تحوُّل كبرى لهذا الشاب في عمر الخامسة والعشرين وقتها.. تعلَّمت أن أضع احتياجات شخص آخر قبل احتياجاتي؛ ولم أدرك وقتها أنني بدأت رحلة التغيير الروحي التي تُسمى التربية.

ولقد استفدنا، زوجتي وأنا، استفادة كبيرة من الكتب واللقاءات التي تعلِّمنا كيف نشكِّل أبناءنا؛ لكن طوال الطريق أدركنا أن أبناءنا يشكلوننا أيضًا. التربية طريق ذو اتجاهين! أطفالنا علَّمونا كيف نضحّي (الفصل ١٢)؛ وكيف نتعامل مع الشعور بالذنب (الفصل ٣)؛ ودربونا على فن الإصغاء، وأجبرونا على أن نركع على ركبنا في الصلاة (الفصل ٤)؛ وعرفونا كيف نضحك (الفصل ٥)؛ وكيف نتجاوز الحزن (الفصل ٩)؛ وكيف نعيش بشجاعة (الفصل ٦)؛ وساعدونا على مواجهة ضعفنا واحتياجنا، وضرورة الاعتماد على الله الأعظم منّا (الفصل ١٣). لم أعرف في حياتي أكثر من خبرة التربية كواحدة من أكثر عوامل التأثير في البناء الروحي.

معلِّمون صغار

هذه الفكرة أن الله يستخدم الأبناء ليعلِّمنا، وأن لدينا فرصة لنحصل على بصيرة روحية ممَنْ دُعينا لتربيتهم وتعليمهم، تأتي من الرب يسوع نفسه.. لقد كان في هذا الأمر ثوريًا.

لم يتمتع الأطفال في القرن الأول بالمكانة اللائقة، ولم يكن يُعطى لهم أي احترام تقريبًا. وبالرغم من أن العائلات كانت تقدِّر أطفالها، كان المجتمع بالكاد يحتملهم. واللغة في أيامهم تكشف التحيز السائد في القرن الأول.. إحدى الكلمات اليونانية التي تُترجم "الطفل" هي «Pais or Paidion»، ومن بين معانيها الأخرى: "الخادم" أو "العبد". وهناك كلمة أخرى هي «nepios»، وتحمل معنى عدم الخبرة، والحماقة، وقلة الحيلة. كما كان الفلاسفة اليونان دائمًا ما يوبخون الشخص الأحمق أو الغبي بنعته بهذه الكلمة (nepios). بل وإن بعض كُتَّاب الكتاب المقدس كانوا يحثون المؤمنين على التوقف عن التفكير مثل الأطفال [paidia] (راجع كورنثوس الأولى ١٤: ٢٠).[1]

تخيَّل وقتها دهشة الناس عندما يُحضِر الرب يسوع طفلاً مزعجًا وصاخبًا، ويضعه أمام الجموع (متى ١٨: ١– ٩). وبينما يضع يسوع يده على كتف الصبي، كانت له الجرأة ليقول إن هذا الصغير يُقدِّم مثالاً يُحتذى به.

حتى الطفل نفسه لابد أنه شعر بدهشة كبيرة! كان الأطفال لا يطيقون الانتظار حتى يصلوا إلى مرحلة البلوغ، ويتطلعون بشغف إلى التخلُّص من مكانتهم الوضيعة. لكن يسوع قال: "لا، لقد فاتكم أن تفهموا شيئًا مهمًا.. لو لم تتواضعوا مثل أحد هؤلاء، لن تدخلوا أبدًا ملكوت الله". ويقصد بذلك: "انظروا إليهم الآن، تعلَّموا منهم الآن، واطمحوا لتكونوا مثلهم."

ثم يفعلها يسوع ثانية، بعدما طهَّر الهيكل من الصيارفة مباشرة (راجع متى ٢١: ١٢– ١٦). إنه لم يطرد اللصوص فقط، لكنه شفى العميان والعرج أيضًا؛ لذا بدأ الصغار يهتفون: "أوصنّا لابن داود!"

اغتاظ رؤساء الكهنة والمعلِّمون جدًا، وقالوا له: «أتسمع ما يقول هؤلاء؟»

أجابهم يسوع: «نعم! أما قرأتم قط: من أفواه الأطفال والرضع هيأت تسبيحًا؟»

ماذا حدث هنا؟ سخر القادة الدينيون من يسوع: "اردع هؤلاء الأطفال المحتقرين والجهلاء والأغبياء الذين يعاملونك كمسيّا. ربما تقدر أن تخدعهم، لكننا نفهم حقيقة مَنْ أنت!" بفطنة قَلَبَ يسوع الموائد، وهو يقول فيما معناه: "أنتم المخدوعون، وليس هؤلاء الأطفال 'الجهلاء'!"

بدا يسوع متلذذًا بفكرة أن الأطفال "عديمي الخبرة والبسطاء" لديهم فهمٌ أفضل من هؤلاء الكبار المحنَّكين. قال يسوع موجهًا كلامه للجموع في الجليل: «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك.» (متى ١١: ٢٥ و٢٦).

نحن نجد عبقرية الأطفال، من الناحية الروحية، في حالة عجزهم واعتماديتهم. الكتاب المقدس، وكذلك الروحانية المسيحية، دائمًا ما تؤكد على هذا باعتباره أكبر إخفاق عرفته البشرية.

رسالة الإنجيل تفضح المتكبرين.. إنها تُصرُّ على أننا ساقطون وعاجزون، وبحاجة لآخر ليدفع الثمن نيابة عنا، ثم يغطينا بقوة خارجية؛ حتى نستطيع أن نحيا الحياة كما قُصد لنا أن نحياها. والطفل يجسِّد هذه الحقيقة بشكل كامل!

ومع ذلك فرسالة هذا الكتاب تتجاوز فكرة أننا نستطيع أن نتعلَّم شيئًا من مراقبة الأطفال؛ فهو يؤكد على أن عملية التربية هي واحدة من أكثر الرحلات التي تشكل الحياة الروحية، والتي يمكن أن يختبرها أي رجل وامرأة. ما لم نكن متحجرين وجامدين روحيًا –أو مائتين روحيًا بالفعل– فإن رحلة الاهتمام بالأطفال، وتربيتهم، وتدريبهم، ومحبتهم ستترك فينا أثرًا قويًا لا يُمحى. لن نبقى كما كنا في السابق.. سنتغيَّر إلى الأبد، وسنختبر تحوُّلاً أبديًا. من الناحية الروحية نحتاج أن نربي أبناءنا بنفس القدر الذي يحتاجون هم إلى تربيتنا.

لماذا ننجب الأطفال؟

إذا أردت أن أجعل رؤوس الحاضرين تهتز في لقاءات "الزواج المقدس" التي أديرها، كل ما عليّ فعله هو أن أسألهم لماذا تزوجوا. كثيرون منّا دخلوا الحياة الزوجية في سن صغيرة نوعًا ما، وكثيرون أيضًا منّا تزوجوا لأسباب سطحية أو أنانية؛ لكن القليلين منا فهموا الالتزام العميق والدعوة التي يطالبنا بها الزواج الكتابي.

وللأسف معظمنا في النهاية ينجب أطفالاً لأسباب سطحية أيضًا.. بعض الشابات يخبرن مراكز الولادة الطارئة أنهن أردن أن يحملن لينجبن أحدًا يحبهن. بعض الرجال يعتقدون أنه من المهم أن ينجبوا مَنْ "يحملون اسم العائلة". أزواج آخرون ينجبون أطفالاً لأن شكلهم جميل، بينما آخرون في نرجسيتهم يريدون إنجاب أحدٍ يشبههم، والبعض الآخر يظنون أن إنجاب طفل سيقضي على الشعور بالوحدة في الزواج.

لابد أن أعترف أنني شعرت بالحماس الشديد لإنجاب الأطفال، من ناحية لأنني كنت أتوق لاختبار علاقة وثيقة بين الأب وابنه، أو علاقة حميمة بين الأب وابنته. أردتُ أن أكون بطلاً في نظر أطفالي، كما كان

والدي بطلاً بالنسبة لي.. كان لديّ شعور بأن هؤلاء الأطفال سيُثبتون رجولتي. لكن هذه الدوافع، بالرغم من نُبلها، لاتزال دوافع نرجسيَّة في أصلها، بناءً على فكرة غير واقعية عن الأطفال، ونظرة رومانسية لشكل الحياة العائلية.

لم يمر وقت طويل حتى اكتشفت ما يكتشفه كل أب وأم: الأطفال يولدون كخطاة بحاجة إلى نعمة الله، وكمخلوقات اعتمادية تحتاج إلى رعاية على مدار الساعة. هذه الحقيقة ستبدد الحالة الشاعرية وأفكارنا الرومانسية عن الحياة العائلية قبل انتهاء أول عبوة حفاضات من الحجم الموفر!

نحتاج إلى شيء أكثر ثباتًا، شيء يدوم أكثر، شيء يدعمنا أمام تحديات التربية. أفضل سبب لإنجاب الأطفال –السبب الذي سيدوم أكثر من المشاعر– هو سبب بسيط جدًا، حتى أنه لا يبدو عميقًا، وهو: الله أمرنا بأن ننجب أطفالاً (تكوين ١: ٢٨). هذه رغبته بأن "نثمر ونكثر"، وهذا الإثمار يتضمن أبناءً حساسين روحيًا يخدمون الله ويعملون من أجل مجد ملكوته على الأرض. هناك إسهاب في تثنية ٦ ومزمور ٧٨ عن هذه الوصية الواردة في سفر التكوين؛ ونفهم من ذلك أنه ليس من واجبنا فقط أن نحب الرب، بل وأن نربي أبناءً يحبون الله ويطيعون وصاياه.

بكلمات أخرى، إنجاب الأطفال أمر لا يتعلق بنا، بل يتعلق به.. نحن مدعوون لننجب ونربي أطفالاً لمجد الله.

معظمنا تظهر أنانيته الدفينة عندما يتعلق الأمر بتربية الأطفال. نحن نطمح أن نستفيد من الأمر، وعندما نستفيق على حقيقة أن الأبناء يمكن أن يسببوا لنا الإحراج مثلما يمكنهم أن يسببوا لنا الفخر، نصبح مستاءين، ونشعر بالمرارة، وسرعان ما يسود مناخ روحي سلبي على البيت. عندما لا نفهم القصد من التربية، تصبح المهمة شاقة جدًا.

عندما ندرك أن إنجاب الأبناء لا يتعلق بنا لكنه يتعلق بالله، تصبح صعوبات وتضحيات التربية سهلة ومحتملة أكثر. نرى القصد من وراء الصعوبة، فنُذكِّر أنفسنا: "هذا لا يتعلق بي، بل يتعلَّق به." لم يعد الغرض في النهاية إلى أي مدى يجعلني أبنائي فخورًا، ولكن إلى أي مدى أنا أمين في تتميم الواجبات التي أوكلها لي الله. عندما نعلّق آمالنا وفرحتنا على استجابة إنسان خاطئ، فهذه مجازفة محفوفة بالمخاطر في أفضل الأحوال. بالأحرى، عندما نعلِّق نفس الآمال والفرحة على استجابة إنسان خاطئ في سنوات تعلُّم المشي أو المراهقة حتمًا سيؤدي هذا بنا إلى خيبة الأمل واليأس عندما نستفيق.

التربية (والزواج) سيصيباننا بخيبة الأمل، والجُرح، والإحباط. نعم، ستكون هناك لحظات من الفرح الخالص، والسحر الذي لا مثيل له تقريبًا؛ لكن لا يفوتك أن الحياة العائلية يمكن أن تُشقينا إلى الأعماق. إذا لم يكن لدينا سوى حافز أناني، سنهرب من أعظم تحديات التربية.. بمجرد أن تتسرب إلينا خيبة الأمل، سنتراجع لنختبئ في غرفنا أو خارج البيت (مثلما كنا نفعل ونحن صغار)، أو حتى في مكاتب عملنا، أو قاعات الاجتماعات، أو النوادي والصالات، أو المطاعم والكافيهات، أو حتى في الكنائس.

دعونا نقبل أن كلاً من الزواج والتربية يقدم لحظات رائعة كثيرة لكنه يتحدانا بعنف حتى أعماقنا. دعونا نعترف أن الحياة العائلية تُجربنا ربما أكثر من أي شيء آخر. لكن دعونا نقبل أيضًا أنها، لمعظمنا، دعوة إلهية، وجزء من خطته لتكميلنا. بمجرد أن ندرك أننا خطاة، وأن الأبناء الذين أعطاهم لنا الله هم خطاة أيضًا، وأننا معًا كعائلة علينا أن ننمو نحو الله، حينئذ تأخذ الحياة العائلية سياقًا وهدفًا مختلفًا تمامًا. تصبح التربية استثمارًا مقدسًا عندما نفهم أخيرًا أن الله يستطيع أن يُعمِّد

الحفاضات المتسخة، ونوبات غضب الصغار، وصمت المراهقين؛ ليحولنا إلى أشخاص أكثر شبهًا بيسوع المسيح.

ما قلته الآن يعرفه معظمنا في أعماقه، لكننا ببساطة لا نعبِّر عنه بالكلمات. أحد أصدقائي من الرعاة سألني عما أكتب، وعندما شرحت له فكرة الكتاب، شاركني ببعض المشكلات التي واجهها هو وزوجته في تربية ابنهما. واعترف قائلاً: "زوجتي وأنا قطعًا نعتبر تجربتنا مع ابننا «چيف» واحدة من أكثر الأمور تأثيرًا في حياتنا– من الناحية الروحية."

تقر الروائية الحاصدة للجوائز «ريتشل كاسك»: "كأم أنتِ تتعلمين معنى أن تكوني شهيدة وشريرة في آن واحد. في الأمومة اختبرت نفسي كفاضلة جدًا وبشعة جدًا، ومنخرطة جدًا في فضيلة العالم وبشاعته، أكثر مما كنت أظن..."[٢]

إحدى الأمهات ولدت طفلاً بإعاقة في النمو قالت: "لو كان بيدي ما غيّرت شيئًا. أنا مسرورة به، لأنني بدونه لن أكون نفس الشخص الذي أنا عليه الآن. أتمنى له لو كان طبيعيًا، لكنني لستُ نادمة على ما تعلمته."

لستُ نادمة على ما تعلمته.

هذه هي رسالة هذا الكتاب، من نواحي عديدة. الهدف هو أن أصطحبك إلى مرحلة ما في رحلة التربية المقدسة لتقول فيها نفس الشيء: "ربما كانت صعبة في بعض الأوقات، لكني لستُ نادمًا على ما تعلمته."

زوجتي وأنا لدينا ثلاثة أبناء.. وبينما أكتب هذه الصفحات، «آليسون» عمرها ستة عشر عامًا، و«جراهام» ثلاثة عشر، و«كيلسي» أحد عشر. لازلنا في خِضم هذه العملية، وهذا ما يجعلني أنزوي خجلاً من أن أحاول كتابة كتاب عن كيف نربي. لذا فإن كتابي هذا عن "لماذا" نربي، و"ماذا حدث" في التربية.

خلال مسيرتنا اكتشفنا أن الأبناء العنيدين، والأطفال الموهوبين، الأبناء الذين يجعلوننا نبكي، والأبناء الذين يجعلوننا نضحك، الأبناء الذين يجبروننا على أن نركع على ركبنا في شكر وامتنان، والأبناء الذين يجبروننا على أن نركع في صلاة وتضرع، الأبناء الذين يتفوقون، والأبناء الذين يخفقون.. كلهم لديهم شيء ليعلِّموه لنا. هذا كله جزء من خطة الله المتقنة للتربية.

لماذا نربي؟

بمجرد أن تنجب أطفالاً، ما الذي يحفزك على التربية؟

بعض الآباء والأمهات ينجبون طفلاً إلى العالم، لكن يرفضون عمل التضحيات الضرورية لتربية هذا الطفل تربيةً حقيقية. أحد أباطرة العقارات المشهورين أخبر أحد الصحفيين مؤخرًا: "إذا استطعت أن أرى ابنتي على العشاء مرة كل شهرين، أكون سعيدًا لهذا. لستُ مضطرًا للتواجد طوال الوقت لأكون أبًا صالحًا."[٣] عندما تقرر إنجاب أطفال فهذا شيء، لكن تربيتهم بشكل يومي تتطلب مجموعة مختلفة تمامًا من القرارات. ما الذي يدفعك لتقوم في الصباح لتساعد طفلك في واجباته المدرسية، أو تسهر متأخرًا في المساء تتحدث لابنتك عن يومها؟ لماذا نحرم أنفسنا من بعض الأشياء حتى يكون لأبنائنا بعض الأشياء الأخرى؟ لماذا تتخلى عن بعض الأشياء التي تحبها حتى تبقى في البيت مع أطفالك؟

إذا كنتِ تعيشين كأم بمفردكِ، لماذا تواصلين فعل كل هذا، حتى عندما يجعلك الإعياء تشعرين كما لو كنتِ ترتدين معطفًا وزنه ٢٥ كيلو جرامًا؟ وإذا كنت تعيش مع أولاد زوجتك، لماذا تزعج نفسك بكل هذه المهاترات، وتتفاوض حول علاقات مليئة بالمشاكل، وتحاول أن تفعل أشياء يقولون

إنها مستحيلة تقريبًا– لتنجح في النهاية في مزج عائلتين مختلفتين جدًا ومجروحتين جدًا؟ إذا كنت تتبنى طفلاً، ما الذي يجعلك مستعدًا لتحمل هذا الالتزام الصعب جدًا تجاه ابن شخص آخر؟

نحن نقضي وقتًا طويلاً في التحدث عن "كيف تكون التربية" لدرجة نهمل فيها سؤالاً لا يقل أهمية هو: "لماذا نربي"! هذا شيء مؤسف؛ لأن "لماذا" هي التي تدفع وتحدد أيضًا "كيف".. وعندما يكون لدينا الأسباب الخاطئة، فإن دوافعنا ستنحرف.. حتى لو كانت الكيفية صحيحة فالأمر إجمالاً سيكون خطأً!

يقدِّم لنا الرسول بولس إجابة واضحة جدًا للسؤال "لماذا" في كورنثوس الثانية ٧: ١. بدايةً هذه الآية ربما لا تتعلق بالتربية (وهي بالفعل ليست كذلك في سياقها)، لكنها قد تكون أكثر آية نافعة عن التربية في العهد الجديد كله:

> «أيها الأحباء لنطهِّر ذواتنا من كل دنس الجسد والروح،
> مكملين القداسة في خوف الله.»

يخبرنا بولس أولاً أن نركّز على تطهير ذواتنا، وليس أطفالنا. نحن كثيرًا ما نميل إلى التركيز على تطهير أبنائنا بحيث نهمل نمونا الروحي الشخصي. أخبرني دكتور «كيفن ليمان» ذات مرة أن التربية تشبه حالة الطوارئ على الطائرة. قبل الإقلاع تُعطى الإرشادات لكل مسافر أنه إذا نزلت أقنعة الأكسچين، على الآباء والأمهات أن يرتدوا أقنعتهم أولاً قبل مساعدة أطفالهم في ذلك. لماذا؟ لأنه في حالة الطوارئ، يحتاج الصغار أن يكون أبواهم قادرين على التفكير بشكل هادئ والتصرف بفاعلية. وإذا لم نأخذ الأكسچين، سيضطرب تركيزنا، وأطفالنا –المعتمدون علينا في هذا الموقف– سيعانون في النهاية.

ما ينطبق في الهواء جسمانيًا ينطبق بالتساوي على الأرض روحيًا.. إذا أهملنا أكسچين روحانيتنا –مسيرتنا مع الله– ستتلوث دوافعنا؛ وستضعف قدرتنا على التمييز والتعاطف والتشجيع والمواجهة. لابد أن نرى التربية كعملية طويلة يطهِّرنا الله كآباء وأمهات من خلالها بينما يُشكِّل أبناءنا أيضًا.

هذا التطهير الشامل يتضمن "كل شيء يدنس الجسد والروح".. وهذا يقودنا إلى ما هو أبعد من الخطايا "الجسدية" الواضحة من تعاطي المخدرات، والإيذاء الجسدي، والنجاسة، واللغة البذيئة، وغيرها؛ بل ويقودنا إلى ملوثات مستترة أخرى منها: الغيرة، والخوف، والمرارة، والاستياء، والرغبة في التحكم والتملك. يحذرنا بولس الرسول من أن عملية التطهير ستكون عميقة وشاملة أيضًا –في قنواتنا الروحية العميقة. التربية ستقودنا لمواجهة خطايانا الروحية التي لم نكن نعلم حتى بوجودها، وستشير إلى نقاط ضعفنا الداخلية التي كنا نراها كنقاط قوة. ستكشف التربية عن الفجوات الكبيرة بما يكفي لنقود سياراتنا الكبيرة بداخلها.

يعرِّف بولس الرسول هذه العملية بـ "تكميل القداسة". هذه ربما أكثر عبارة مفضلة لي قالها بولس في العهد الجديد كله– أنا أحب هذا التعبير جدًا! نحن كخطاة ساقطين لن نعكس صورة المسيح بالكامل حتى يأتي اليوم الذي يظهر فيه. وحتى يحدث هذا علينا أن نعالج العيوب، وربما نستعمل "سنفرة" لتنعيم بعض الشروخ والحواف الخشنة، وندع روح المسيح يشرق فينا بقدر ما نستطيع. هذه العملية من النمو الروحي ليست فقط متغلغلة (لكل شيء يدنسنا)، لكنها أيضًا مستمرة (تكميل في زمن المضارع).

ولماذا نبذل أقصى جهد لدينا؟ ما الذي يحفزنا لننظر للتربية بهذا الشكل؟ ما كان لبولس أن يكون أكثر وضوحًا: نحن نفعل هذا من منطلق "مخافة الله". عندما يكون دافعنا هو مخافة الله، نحن نفقد ٩٩٪ من المبررات التي

نختلقها في حياتنا العائلية. يبقى الله مستحقًا المخافة إلى الأبد، ولن نُعفى أبدًا من التصرف بطريقة تدفعنا إلى الأمام نحو القداسة.

تأمل مثالاً من حياتي الشخصية.. لقد عدتُ من رحلة عمل في نهاية الأسبوع في مساء الأحد متأخرًا. ولأنني لم أرَ ابنتي منذ يومين أو ثلاثة، قمت من النوم بعد أقل من خمس ساعات لأوصلها إلى المدرسة. كان بإمكانها الذهاب بالأتوبيس، لكني إذا أوصلتها إلى المدرسة سيمكنها أن تتأخر قليلاً في النوم، ويمكننا أن نتحدث في الطريق- أو هكذا ظننتُ.

كان يوم الاثنين، وكانت ابنتي في حالة مزاجية صعبة. وكان أسهل أن أحرك جبلاً من أن أحصل على جملة واحدة منها. نزلت من السيارة صامتة بدون حتى أن تقول "شكرًا". ابنتي «آليسون» سريعة في التعبير عن شكرها- لكن كان هذا يومًا من أيام منتصف البلوغ الصعبة.

لو كنت أبًا يدور في فَلَك أطفاله، لشعرت بالاستياء، وبدأت على الفور في الهياج.. "استيقظتُ بعد ساعات قليلة من النوم، وهذه طريقة معاملتها لي؟ حسنًا، لن أفعل هذا ثانيةً لها! في الأسبوع القادم، سأنام وسأمارس هواية الجولف!"

الآباء والأمهات الذين يدورون في فَلَك أطفالهم يتصرفون بلطف معهم عندما يتصرف أبناؤهم بلطف معهم. الأب والأم الذي يدور في فَلَك طفله يبني تصرفاته بناءً على استجابة الطفل.

في المقابل، الأب أو الأم الذي يدور في فَلَك الله يتصرف انطلاقًا من مخافة الله.. بغض النظر عن طريقة تعامل الأبناء معي أعرف أن الله يريد مني أن أتحرك نحو أبنائي، وأدخل إلى حياتهم، وأقدِّم تأديبًا كتابيًا، وحبًا، ومساندة. لا يهم كيف سيتجاوبون معي بقدر ما يهم ما دعاني الله لأقوم به. وبالرغم أنني مفتون بابنتي، لكن لا أقوم من سريري بعد ساعات قليلة من النوم فقط بدافع محبتي لها، لكن بدافع مخافة الله أيضًا.

هل ترى الفارق؟ أتمنى أن ترى أهمية ذلك أيضًا. عندما لا يكون الله مصدر دوافعنا، فعادةً ما نركز على الأمور التافهة ونهمل الأمور الهامة. ربما نربي طفلاً أكثر لباقة وطاعة، لكننا لن نغرس فيه ما هو أكثر أهمية بكثير. لو كانت التربية تتعلق فقط بالسلوك وتصحيح السلوك، لمدح الرب يسوع الفريسيين وألقى التراب على المرأة الزانية.

بكلمات أخرى، أقول إن سعينا الروحي لابد أن يقود تربيتنا. العمل الروحي غير المكتمل أو المهمل حتمًا ستظهر آثاره في علاقاتنا بطريقة سلبية: سنكون أكثر إلحاحًا، أكثر تحكمًا، أكثر تساهلاً، أكثر استياءً. لا يستطيع شريك حياتنا أو أبناؤنا أن يُشبعوا جوعنا الروحي الذي خلقه الله في نفوسنا. عندما نهمل الله، فنحن نطلب من زواجنا وتربيتنا أن يصبحا بديلاً عن الله.. وهو ما لم يُصمما لأجله أبدًا.

في هذا الكتاب، أتمنى أن أستثمر هذا السعي الروحي وأقدسه من أجل خير عائلاتنا وملكوت الله. التربية المسيحية هي حقًا مسيرة مقدسة.. إنها تدعونا كآباء وأمهات لنطهِّر أنفسنا، وأن نستخدم عملية تربية الصغار لنكمُل في القداسة، وأن نفعل هذا بانتظام، وكل يوم، بدافع مخافة الله. إذا بدأنا هذه المسيرة ونحن متسلحون بهذا الفهم، فكل جانب من التربية سيكتسب معنىً وهدفًا جديدًا– حتى أصعب ما فيها.

نحن نعيش وسط مُعلِّمين قديسين.. أحيانًا يبصقون على أنفسهم أو علينا، أحيانًا ينفجرون في نوبات غضب، أحيانًا يحتضنوننا ويقبِّلوننا ويحبوننا. في السراء والضراء هم يُشكلون قلوبنا، ويُشكلون أنفسنا، ويدعوننا لنختبر الله بطرق أعمق وفي آفاق جديدة. وحتى إن بكينا بدموع غزيرة على مدار رحلة التربية، فإن بركات كثيرة تنتظرنا على رأس كل طريق نخطو فيه.